البحث السابع

البُعد الحضاري للعهد المكي في السيرة النبوية

تأليف

د. محروس محمد محروس بسيوني

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

البُعـد الحضاري للعهد المكـي في السيرة النبوية

محروس محمد محروس بسيوني
قسم الثقافة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر
البريد الالكتروني: mahrousbassiouny.٨٢٤@azhar.edu.eg

الملخـص:

يهدف البحث إلى التعرف على الأبعاد الحضارية وسماتها في العهد المكي للتأسِّي والتجديد الفكري والسلوكي والحضاري للأمة فقد عني العهد المكي بتربية الأفراد لتكوين الأمة على أبعاد حضارية دينية وقيمية واجتماعية..، وتناول السيرة النبوية من منظور حضاري يبرز أبعاد الحضارة الإسلامية لمعرفة التحولات العقدية التصورية عن العلاقة مع الله والكون والإنسان وآثارها الحضارية وذلك في العهد المكي وبيان أثره هذه الأبعاد الحضارية في بناء الرعيل الأول من الصحابة وكيفية الاستفادة من هذه الأبعاد للنهوض الحضاري للأمة الإسلامية في العصر لحاضر، ومن دواعي إجراء هذا البحث ما يلاحظ من الهزيمة النفسية التي ظهرت تبعاتها في الدعوة إلى استدعاء الآخر الحضاري والافتتان بقيمه وحضارته كبديل للحضارة الإسلامية مهما كان في ذلك من تخلٍ عن قيم الإسلام ومبادئه. واحتياج السيرة النبوية إلى خدمة علمية كبيرة تتعمق من خلالها المعاني السامية التي تفيد الأجيال الصاعدة؛ لتنمي روحها وعقلها، وفق فهم المؤمنين بها. وتم ذلك من خلال منهج تحليلي استنباطي. وتوصل البحث لنتائج عدة العهد المكي عَنِيَ ببناء الإنسان الحضاري، وخالف ما كان عليه المجتمع الجاهلي في بنيته وتوجهاته، بيد أن العناية المركزة على الفرد جعلت من هذه المرحلة نموذجًا تربويًّا وبناءً حضاريًّا يمثل مرجعية عملية ومنهجًا للتكوين الحضاري لأمة الإسلام وبوصلة تضبط مسيرة عودة المسلمين إليها عندما يتيهون عنها أو تنحط حضارتهم ويُعد التوحيد لهَّ مكانة الرأس من الجسد في البناء الحضاري في العهد المكي، وعلى أساسه ومنه انطلقت كل الأبعاد الحضارية الأخرى بل وسهَّل هذا البعد

رسوخ وتنمية الأبعاد الأخرى في نفوس الرعيل الأول، فتغيرت الأفكار واستنارت بنور العلم والمعرفة. ويوصي البحث بإعادة قراءة السيرة النبوية من منظور حضاري؛ ليستلهم المسلمين من خلالها سبل عودتهم للشهود الحضاري والسعي لإقرار مناهج دراسية تعنى بالأبعاد الحضارية في السيرة النبوية بغية الاستفادة منها في وضع دليل إرشادي عملي للنهوض الحضاري للأمة.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، القيم، السيرة النبوية، العهد المكي، التوحيد، البعد

The cultural dimension of the Meccan era in the Prophet's biography

Mahrous Muhammad Mahrous Bassiouny

Department of Islamic Culture, Faculty of Islamic Da'wah in Cairo, Al-Azhar University, Egypt

E-mail: mahrousbassiouny.٨٢٤@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to identify the cultural dimensions and their characteristics in the Meccan era for the establishment and intellectual, behavioral and cultural renewal of the nation. The Meccan era was concerned with educating individuals to form the nation on cultural, religious, value and social dimensions..., and dealt with the Prophet's biography from a civilizational perspective that highlights the dimensions of Islamic civilization to know the conceptual doctrinal shifts in the relationship. With God, the universe and man and its cultural effects in the Meccan era and explaining the impact of these cultural dimensions in building the first generation of companions and how to benefit from these dimensions for the cultural advancement of the Islamic nation in the present era. One of the reasons for conducting this research is what is observed of the psychological defeat whose consequences appeared in the call to Calling the cultural other And the fascination with its values and civilization as an alternative to Islamic civilization, regardless of the abandonment of the values and principles of Islam. The Prophet's biography needs a great scientific service through which the sublime meanings that benefit rising generations are deepened. To develop her spirit and mind, according to the understanding of her believers. This was done through a deductive analytical approach. The research reached several results that the Meccan era was concerned with building the civilized human being, and differed

from what the pre-Islamic society had in its structure and orientations. However, the focused care on the individual made this stage an educational model and civilizational building that represents a practical reference and method for the cultural formation of the nation of Islam and a compass that controls the path of Muslims' return to it when They stray from it or their civilization declines, and monotheism is considered to have the status of the head over the body in the civilizational structure of the Meccan era, On its basis and from it, all other dimensions of civilization were launched. This dimension facilitated the establishment and development of the other dimensions in the souls of the first generation, so ideas changed and were illuminated by the light of science and knowledge. The research recommends rereading the Prophet's biography from a civilizational perspective. Through it, Muslims will be inspired by ways to return to civilizational witness and strive to adopt academic curricula that deal with the cultural dimensions of the Prophet's biography in order to benefit from them in developing a practical guide for the cultural advancement of the nation.

Keywords: Civilization, Values, Prophetic Biography, Meccan era, Monotheism, Distance.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

إن أولى ما يصرف إليه الراغب همته والباحث نهمه بعد كتاب الله تعالى أن يدلف إلى السيرة النبوية ليظهر دورها ويجلي محاسنها. ومن أجلِّ موضوعات السيرة وأشدها فائدة هو الأبعاد الحضارية في السيرة النبوية والتي لم تحظ حتى الآن – من وجهة نظري– بما تستحقه من العناية والبحث والنظر. والسيرة النبوية تضع بين يدي البشرية نموذجاً حياً للبناء الحضاري، والذي يقصد النفس البشرية، فيهدم ما رسب فيها من أدران الجاهلية وجفاء البداوة، وينقيها من ضلالات التحريف والزيغ عن الصراط المستقيم، من خلال ممارسة عملية ونموذج تطبيقي فريد.

أهمية البحث:

إن أهمية الدراسة تكمن في الإجابة عن سؤال مهم وهو: ما التغير الذي طرأ على مسلمي مكة جعلهم يتحولون من البداوة للحضارة؟ وهل هذا التحول وتلك الانطلاقة كانت نتاجا لجغرافية المكان؟ أو كرد على الحضارات السائدة في هذه الفترة؟ أم كانت انبعاثًا حضاريًا لا علاقة له بالمكان ولا بأحداث التاريخ المجاور للجزيرة العربية في حضارتي الفرس والروم؟

وتتجلى أهمية الدراسة في أن الأبعاد الحضارية في السيرة النبوية هو أبلغ دليل على إنسانية الحضارة الإسلامية، وأثرها في تشكيل مسيرتها.

مشكلة البحث:

تعاني الأمة الإسلامية في العصر الحاضر من مشكلات حضارية عدَّة، مثل: التخلف العلمي، وضعف الإبداع والتشرذم، والخلل الحاصل من ضعف الالتزام بالقيم، وتسلل الإلحاد إلى بعض أبنائه، وتأثُّرها الواضح بالحضارة المادية؛ مما أثَّر في مسيرتها وباعد بينها والتأثير المنشود في مسيرة الحضارة الإنسانية، بما يستدعي تقديم

الحلول لهذه المشكلات، ووضع تفسيرات لحالات التأزم والتراجع في المجتمعات المسلمة حضاريًّا، و بيان كيفية مواجهة الحضارة المادية الغالبة التي لا تبالي بخصائص الإنسان وتدفعه دفعًا لكل ميدان تبرز فيه جوانبه المادية والحيوانية، وتقصيه عن كل ما يعزز روحانيته وإنسانيته المتكاملة.

وتعد السيرة منهلاً عذبًا يحقق بعضًا من هذه الأهداف، ويسهم في الوقوف أمام طغيان الثقافة الغالبة في العصر الحاضر، والذي جعل الافتتان بها يُضْعِف الثقة في تراث الأمة وثوابتها.

أسباب اختيار الموضوع

١-ضعف الإفادة من المنهج النبوي في التغيير والنهوض الحضاري بما يدعو لمتابعة الدراسات حول سبل العودة للنهوض الحضاري من خلال السيرة النبوية.

٢- الهزيمة النفسية التي ظهرت تبعاتها في الدعوة إلى استدعاء الآخر الحضاري والافتتان بقيمه وحضارته كبديل للحضارة الإسلامية مهما كان في ذلك من تخلٍ عن قيم الإسلام ومبادئه.

٣-احتياج السيرة النبوية إلى خدمة علمية كبيرة تتعمق من خلالها المعاني السامية التي تفيد الأجيال الصاعدة؛ لتنمي روحها وعقلها، وفق فهم المؤمنين بها.

٤- الحاجة لبيان فهم وتطبيق الجيل الأول المشهود له بالأهلية للإسلام وقيمه الحضارية، للاقتداء بهم.

٥- ارتهان معاودة النهوض الحضاري بالقدرة على تقويم الواقع من خلال القرآن والسنة والسيرة النبوية.

أهداف البحث:

هذا البحث يقصد إلى بيان الأبعاد الحضارية في السيرة النبوية والتي تُعَبِّرُ عن إنسانية الحضارة الإسلامية وعالميتها وشمولها، ومن الأهداف ما يلي:

١-التعرف على الأبعاد الحضارية وسماتها في العهد المكي للتأسِّي والتجديد

الفكري والسلوكي والحضاري للأمة.

٢-معرفة التحولات العقدية التصورية عن العلاقة مع الله والكون والإنسان، في العهد المكي وآثارها الحضارية.

٣- تناول السيرة النبوية من منظور حضاري يبرز أبعاد الحضارة الإسلامية يختلف عن المسار التاريخي المعتاد.

٤- محاولة وضع حلول علمية للمشاكل الحضارية للأمة الإسلامية في العصر الحاضر تنسجم مع الإسلام فكرًا وتطبيقًا من خلال السيرة النبوية.

٥ - رد الادِّعاء بضرورة الاقتصار على النص القرآني في التقويم، والمنهجية، والمرجعية، والمعايرة، والعدول عن السنة والسيرة، والتطبيق، والتنزيل على الواقع، أو تجاوزهما عمليا.

أسئلة البحث:

١- ما مفهوم الأبعاد الحضارية، وما سماتها، وأهميتها للأمة؟

٢- ما الأبعاد الحضارية التي تم غرسها في الأمة المسلمة في العهد المكي حتى صار أفرادها بناةً لحضارة عظيمة؟

٣- هل يسهم بيان الأبعاد الحضارية للسيرة النبوية في عودة الشهود الحضاري للأمة في العصر الحاضر؟

٤- كيف يستفيد المسلمون من الأبعاد الحضارية للعهد المكي في حل مشكلات الأمة الإسلامية، والإنسانية؟

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على مناهج متنوعة نظرًا لطبيعتها، منها المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي المقارن، وذلك لاحتياج الدراسة إلى تتبع النصوص والأحداث

وتحليلها واستنباط الأبعاد الحضارية منها والمقارنة عند الحاجة مع واقع المسلمين في العصر الحاضر.

هيكل البحث:

المقدمة.

التمهيد: ويشتمل على:

أولا: التعريف بالحضارة والبعد الحضاري.

ثانيًا: الدراسات السابقة.

المبحث الأول الأبعاد الحضارية الدينية والفكرية في العهد المكي. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: البُعد الديني

المطلب الثاني: البُعد الفكري

المبحث الثاني: الأبعاد الحضارية الاجتماعية والقيمية في العهد المكي. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: البُعد الاجتماعي

المطلب الثاني: البُعد القيمي

الخاتمة.

المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

التمهيد

أولا: تعريف الحضارة

تعني الحضارة: الحضارة لغة "شهود الشيء وإيراده ومشاهدته" قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [(١)]، ويعني شهود الحضر والإقامة فيه، والحضارة: خلاف البداوة، سميت بذلك؛ لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[(٢)].

والحضارة بهذا الاعتبار –أي: اشتقاقها من مطلق الحضور– تطلق: ويراد بها: كل حضور في الواقع رام تحريك الحياة بكل أبعادها وامتداداتها، وعيًا وسعيًا، من خلال تحيزاته وأنساقه المعرفية (مصطلحاته ومفاهيمه النابعة من رؤية للإنسان وعلاقته بالكون وعالم الأشياء من حوله)، ثم سعى إلى تقديم هذا الحضور بأنساقه وتحيزاته على أنه نموذج قياسي للبشرية كلها[(٣)] فالعبرة بالحضور والتأثير في الوجود وليس بالوجود فقط كما قال مالك بن نبي[(٤)]، فالوجود قد يلازمه التقوقع على الذات والبعد عن الوعي والتأثير، فالحضور مشاركة بتأثير وفاعلية مع الوجود وطرح رؤية تحرك الحياة نحو الأفضل وتصلح لأن تكون ملهمة ونموذجا للغير. فالحضارة "ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض ماديا أو معنويا"[(٥)].

---

(١) البقرة: ١٨٠ .

(٢) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، لسان العرب، مجلد ٤، ط١، ص١٤٩ – ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، ص: ٧٥.

(٣) محمد الخطيب، القيم الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، (إصدار إدارة البحوث والدراسات الإسلامية قطر) العدد ١٣٩، ص٢١.

(٤) ينظر: ابن نبي، مالك، مشكلة الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط٤، ص٢١.

(٥) حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، ص ٥٦.

ويمكن تعريف البعد الحضاري: بأنه المعيار والمبدأ الذي أبدع نسقًا حياتيًّا جديدًا غيَّر رؤية الإنسان وسلوكه نحو أخيه الإنسان والكون وسنن الحياة، اعتمادًا على نسق معرفي وقيمي أسهم في ضبط مسار الحياة وتشييد عمرانها. وفي هذا البحث يكون الإسلام (القرآن والسنة) هو الموجه المعرفي والقيمي الذي وجه وضبط مسار هذه الحضارة الإسلامية منذ انطلاق مسيرتها في مكة المكرمة، وتكون مسيرة النبي هي النموذج العملي الذي طبق أبعاد هذه الحضارة واقعًا عمليًّا. وهذه الأبعاد تمتاز بسمات مهمة وهي: الثبات، والقيمية والإنسانية، والتكامل، والمرجعية.

ثانيًا: الدراسات السابقة

يُعدُّ التناول التاريخي للسيرة النبوية هو البداية والأغلب والأعم في دراسات السيرة النبوية. بل هو الأصل المعرفي الذي تعتمد عليه كل الدراسات الأخرى، ولم يكن الالتفات إلى الجوانب الحضارية منظورًا إليه في بداية تدوين السيرة وحتى وقت متأخر؛ لأن الحضارة الإسلامية كانت وارفة الظلال، فلما حصل الانحطاط الحضاري بدأت الدراسات الإسلامية تتلمس سبل النهوض الحضاري في مصادر الإسلام (القرآن والسنة والتطبيق العملي للإسلام وهو السيرة النبوية). **ومن هذه الدراسات الحديثة التي عنيت بالجانب الحضاري ما يأتي:**

١- **دراسة القيم الحضارية في رسالة خير البرية**[(١)]. تحدثت الدراسة عن القيم العلمية، وهي: العلم والدين والإتقان، والقيم الاجتماعية، وهي: الوسطية والعناية بالمرأة والحب والسلام والخلقة والنظافة، والقيم الإدارية، وهي: العدل والقوة والشمول للمبادئ والتنمية واحتمال المخالف. وتوصل الباحث إلى أن الإسلام جاء بكل مقوم من مقومات الحياة والأحياء سواء في ميدان العلم أو الاجتماع أو الإدارة.

(١) محمد بن عبد الرحمن بن صالح السحيم، القيم الحضارية في رسالة خير البرية، كرسي المهندي عبد المحسن إدريس للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة، (السعودية: جامعة الملك سعود) كلية التربية، ط ١، ١٤٣٢هـ.

٢- **الرؤية الحضارية في دراسة السيرة النبوية عند عبد الحليم عويس**[١] تناول البحث دراسة عن مؤلفات ومقالات د. عبد الحليم عويس كباحث في التاريخ الإسلامي، وذكر مؤلفاته ومقالاته التي عني فيها ببيان الرؤية الحضارية للسيرة النبوية، وتوصل الباحث إلى أن السيرة كوحدة مترابطة تبني الفرد والدولة وتسعد الإنسانية، وليست أحداثًا متفرقة مقطوعة الصلة ببعضها.

٣- دراسة: **القيم الحضارية والإنسانية في حوار جعفر بن أبي طالب مع ملك الحبشة: قراءة تاريخية حضارية**[٢] تناول البحث القيم الحضارية والإنسانية في خطاب الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب وهو يحاور النجاشي، حيث تمكن جعفرﷺ بذكائه وقدرته الحوارية في إقناع الملك واستمالته لقبول ما جاء به نبينا محمد ﷺ حيث بادر بالدخول في الإسلام بعد أن عرض عليه جعفرﷺ ما جاء به النبي ﷺ مثل التوحيد والصدق وصلة الرحم.

٤- دراسة: **حديث الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالبﷺ مع النجاشي ملك الحبشة تأصيل الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب**[٣]، وكان هدف الدراسة هو الكشف عن الظروف الزمانية والمكانية المحيطة بالحوار، والرجال الذين صنعوا أحداثه، وكشفت الدراسة عن جانب مهم من جوانب السيرة النبوية في العهد المكي. وهو

---

(١) مسعود فلوسي، الرؤية الحضارية في دراسة السيرة النبوية عند عبد الحليم عويس، مجلة الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر: جامعة باتيه) كلية العلوم الإسلامية العدد التاسع عشر- ذو الحجة ١٤٣٤هـ/ أكتوبر ٢٠١٣م.

(٢) بسام عبد العزيز الخراشي، القيم الحضارية والإنسانية في حوار جعفر بن أبي طالب مع ملك الحبشة: قراءة تاريخية حضارية، مجلة العلوم العربية والإنسانية (السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) كلية العلوم الاجتماعية- المجلد ١٠، ع١، ٢٠١٦، الصفحات ٣٨٣-٤٢٥،

(٣) عبد السميع محمد أنيس، حديث الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب مع النجاشي ملك الحبشة تأصيل الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب، مجلة كلية الشريعة (قطر: جامعة قطر) المجلد ٣٢، ع: ١، ٢٠١٤ - ١٤٣٥هـ.

التعامل مع أهل الكتاب، والاستفادة من هذه الحوارات في معالجات المشكلات المعاصرة.

٥- دراسة: **هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي**(١)

أبرزت الباحثة المواقف السننية التي لها تأثير عظيم على الحياة البشرية وسجلت خواطرها المتعلقة بسنة التغيير الاجتماعي في مراحل السيرة لمختلفة من ميلاد النبي ﷺ إلى وفاته. وكيف اعد الله النبي نفسيا وفكريا وأخلاقيا واجتماعيا للقيام بواجب الرسالة.

والدراسة الحالية تختلف عن تلك الدراسات السابقة في كونها تبحث عن الأبعاد الحضارية التي غرستها السيرة النبوية في مكة، وكان الهدف منها بناء الإنسان الحضاري الذي سيضع أسس مجتمع الحضارة الإسلامية المتميز بمؤسساته في المدينة المنورة، وهذا مالم تتوافر عليه دراسة سابقة بهذه المفهوم، مع التأكيد على الاستفادة من الدراسات السابقة في بعض جزئيات الدراسة.

(١) حنان لحام، هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، دمشق: دار الفكر ٢٠٠١.

المبحث الأول
الأبعاد الحضارية الدينية والفكرية في العهد المكي

المطلب الأول: البُعد الديني

كانت جزيرة العرب تموج بالوثنية التي شوهت دين إبراهيم عليه السلام، ولم يبق منه عند البيت العتيق إلا مراسم ومظاهر فقدت لبها وجوهرها، وأحاط به الشرك والتجسيم والتنجيم والكهانة إحاطة السوار بالمعصم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]، فكان أول عمل حضاري نبوي في مكة المكرمة دعوته للعودة للتوحيد المنسجم مع الفطرة الإنسانية، فكان شعاره ﷺ «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[2]. فالعقيدة هي كل شيء في الإنسان، فإذا قويت هيمنت على العقل والقلب، وصحت العزيمة، واتضحت الرؤية، وكان التخطيط سليما حكيما.

لقد كانت الدعوة للتوحيد شعار الدعوة الناشئة، وأساسها، ومبدؤها الذي لا تحيد عنه، بل هي الدعوة التي أقضت مضاجع الكفار، وجعلتهم ينتفضون منكرين ساخطين متوعدين للنبي ﷺ ومن معه بالعذاب والقتل والتنكيل والحصار، ومما ورد في ذلك من أحداث السيرة عن مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا »، قَالَ: وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا

(١) النجم: ١٩ – ٢٣

(٢) الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، رقم ٢٣١٥١.ج: ٤٨، ص٢٢٤. وقال ابن الجوزي: صحّحه الحاكم ١/ ١٥، جامع المسانيد، رقم ١٦٦٩، ج ٢، ص ٤٤٠.

اللَّاتَ وَالْعُزَّى، قَالَ: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ »[1]، وكان أبو لهب عم النبي ﷺ مثل قرينه أبي جهل في العداوة والصد عن التوحيد، عَن ربيعَة الديلى قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ تَقِدُ وَجْنَتَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ وَدِينِ آبَائِكُمْ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا هَذَا أَبُو لَهَبٍ[2].

وقد سجل القرآن الكريم رفض المشركين للتوحيد في قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [3]

يقول ابن كثير: " أَزَعَمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟! أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ – قَبَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى–وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ اللَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا"[4].

وكان هذا رد المشركين على رسول الله ﷺ لما طلب منه عمه أن يستجيب لطلب قريش قائلا له: يَا ابْنَ أَخِي هَؤُلَاءِ مَشْيَخَةُ قَوْمِكَ وَسَرَاتُهُمْ وَقَدْ سَأَلُوكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِهِمْ وَيَدَعُوكَ وَإِلَهَكَ. قَالَ: "يَا عَمِّ أَفَلَا أَدْعُوهُمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ؟" قَالَ: وَإِلَامَ تَدْعُوهُمْ؟ قَالَ: "أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِكَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَيَمْلِكُونَ بِهَا الْعَجَمَ". فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ: مَا هِيَ وَأَبِيكَ؟ لَنُعْطِيَنَّهَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا. قَالَ: تَقُولُونَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فَنَفَرَ وَقَالَ: سَلْنَا غَيْرَ هَذَا قَالَ: "لَوْ جِئْتُمُونِي بِالشَّمْسِ حَتَّى تَضَعُوهَا فِي يَدِي مَا سَأَلْتُكُمْ غَيْرَهَا" فَقَامُوا مِنْ عِنْدِهِ غِضَابًا، وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَنَشْتُمَنَّكَ وَإِلَهَكَ الَّذِي أَمَرَكَ

(١) المصدر نفسه، رقم ١٦٦٠٣ ج ٢٧، ص ١٤٨. وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، السيرة النبوية تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ج٢ ص١٥٢.

(٣) ص: ٤ – ٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٧ ص ٥٣.

بِهَذَا.﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (١) (٢).

وظل النبي يدعو عمه للتوحيد حتى مات على غير الملة، عَنِ ابْنِ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ»(٣).

ويعد التوحيد من أهم الأبعاد الحضارية التي ظهرت منذ بداية الحضارة الإسلامية في العهد المكي؛ لأن التوحيد هو غاية الخلق، وكل حضارة لا تصل لهذه الغاية فهي ناقصة مهما بلغت من رقي مادي. وهذا البعد له قيمته لدرجة أن الأصفهاني لا يعد الكافر إنسانًا إلا على سبيل المجاز؛ لأنه لم يستكمل مرتبة الإنسانية القائمة على العلم بالله وعبادته(٤).

وقد انعكس هذا البعد الحضاري على المسلمين منذ نزل الوحي على الرسول ﷺ، فالتوحيد هو الذي أسهم في تفجير قدرة الإنسان المسلم في بناء الحضارة، فمن معانيه "المفاصلة الوجودية بين الألوهة وعالم الطبيعة كله. فكل شيء في الخليقة مخلوق وغير متعالي، وخاضع لسنن الزمان والمكان، ولا يصلح أي شيء منه لأن يكون ربًا بأي معنى، فالتوحيد دفع الإنسان دفعًا للكون محدِّداً العلاقة بينهما مغريًا الإنسان بما أهَّله من خلقه وعقله وبما مكّنه من قدرة على الاستفادة من الكون المسخَّر له، والتي لا

(١) ص: ٦.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، السيرة النبوية تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ج ٧ ص:٥٣.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب: مناقب الأنصار، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٤، ج، ٥ ص:٥٢.

(٤) ينظر: الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد الراغب، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ٤٥-٤٦.

حدود لها طالما أنها تحت مظلة التعبد لله من خلال هذا السعي الحضاري للانتفاع وليس السيطرة"[١].

فقد ساد الضياع الفكري والظلام العقدي شبه الجزيرة العربية على امتداد أركانها عبر القرون التي سبقت البعثة النبوية رغم وجود قلة من الحنفاء الذين نزعوا إلى ملة إبراهيم عليه السلام "ولم تكن الانطلاقة الحضارية استجابة موضوعية لما يقتضيه مجتمع الجاهلية آنذاك من تغير تأريخي بسبب ما كان يعانيه من تناقضات مادية حادة كما يزعم بعض المؤلفين[٢]، كما لم يكن بسبب تميز لجنس على غيره، ولا قفزة حضارية نتيجة التطور المعرفي بل كانت استنادًا إلى وحي رباني أوقد مشاعل الهداية في النفوس، فأحياها من مواتها، وأنار لها طريق الهداية المبني عل التوحيد.

فالظلام ران على الأفئدة نتيجة للوثنية التي كفرت بالعقل، ونسيت الله، ولانت في أيدي الدجالين وانطوت في ظلام هذه الوثنية التقاليد النافعة وأنظمة الحكم؛ فكانت الأرض مذأبة يسودها الفتك والاغتيال، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة"[٣].

يقول جعفر بن أبي طالب في حواره مع ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب: أيها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكل المَيْتَة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينَا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقَه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله، لنوحّدَه ونعبده ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارمِ والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي، التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: د. السيد عمر، ص: ٣٣٠.
(٢) حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج: ١، ص:٣٨٠.
(٣) الغزالي، محمد، فقه السيرة ص١٩.

نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... [١]

وترسيخ التوحيد من شانه أن يخرج كل حركات الإنسان من دائرة الفوضى على دائرة المعنى، ومن اعتبار الشكل إلى اعتبار المضمون ومن النظر في الأحوال إلى استشراف المآلات[٢].

إن العقيدة الإسلامية التي ترسخت في نفوس الجيل الأول فرضت عليهم بناء جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة. حتى ولو كانت هذه الصلة من أقرب الصلات وأدنى المودَّات، وفي قصة أم سعد بن أبي وقاص بيان لهذا المعنى، فإنَّ أُمَّهُ حَلفَتْ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أبَدًا حتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وقالَتْ لَهُ: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ أوْصَاكَ بِوَالِدَيْكَ، وأنَا أُمُّكَ وأنَا آمُرُكَ بِهَذَا، لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا أَوْ لا آكُلُ ولا أَشْرَبُ حتَّى أمُوتَ، فتعَيَّرُ بِي فيُقَالُ: يا قَاتِلَ أُمِّهِ. فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ : لا تَفْعَلِي يَا أُمَّهْ! فإنِّي لا أَدَعُ دِيني هَذَا لِشَيْءٍ، فمَكَثَتْ ثَلاثًا لَمْ تَأْكُلْ حتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الجَهْدِ، فَلَمَّا رَأى ذَلِكَ سَعْدٌ ﷺ، قَالَ: يَا أُمَّهْ! واللَّهِ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا، ما تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَإِنْ شِئْتِ فَكُلِي، وَإِنْ شِئْتِ لا تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأَتْ مِنْهُ الجِدَّ أكَلَتْ[٣].

وصار من نتائج هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد على الحجارة التي تُبنى بها البيوت أو تُرصف بها الطرق، وأن البشر الذين أُلهوا في ديانات أخرى صُححت أوضاعهم، فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم، يتقدمون

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند أحمد باب حديث جعفر ن أبي طالب، رقم ١٧٤٠، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) محمد الخطيب، القيم الحضارية، ص٦٥.

(٣) موسى بن راشد العازمي، اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية»، ص١ ص ٢٦٨.

عنده بالطاعة، ويتأخرون بالمعصية. ولا شأن لهم في خلق أو رزق[١].

فالبناء في الحضارة الإسلامية يبدأ من الله وينتهي إليه. وبهذا يتمايز البناء الحضاري في الإسلام، الذي يحدد علاقة الإنسان بما سواه بناء على مسلمة "الاستحلاف" عن البناء في الحضارة الغربية[٢]. كما أن الوقوف في وجه الجاهلية في القديم والحديث في حاجة إلى رجال استقر التوحيد في شغاف قلوبهم وتعمقت قضايا العقيدة في نفوسهم.

فقد انطلقت الحضارة الإسلامية من التوحيد، حيث ربطت بين الإنسان والكون برباط الإيمان؛ فصار التوحيد محققًا للانسجام بين الإنسان والكون، ومفجرًا لطاقات الإنسان نحو بناء حضاري يربط بين العقل والقلب، فصار ارتباط التوحيد بالحضارة ارتباط السبب بالنتيجة. فحضارة الإسلام حضارة توحيدية بامتياز.

كما أن التجديد والنهوض بدأ وانطلق من عقيدة التوحيد، حيث تجددت المعاني في النفوس، وتحولت من مسألة توارث الاجتماعي وتقاليد وعادات إلى محل نظر وفكر واعتقاد، وكان التوحيد هو الموجّه. وتجلى هذا في موقف سيدنا أبي بكر ﷺ لما دخل في جوار ابن الدَّغِنَةِ، واعترض الكفار على ابن الدَّغِنَةِ وقالوا له: «إِنَّمَا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ ابْتَنَى مَسْجِدًا، وَإِنَّهُ أَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالْقِرَاءَةَ، وَإِنَّا خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَقُلْ لَهُ: أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَلْيَرُدَّ عَلَيْنَا ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ نُخْفِرَ ذِمَّتَكَ، وَلَسْنَا بِمُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ، فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تُرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة ص٧٢.

(٢) جارودي، رجاء، الإسلام والحداثة، ترجمة: د. العربي كشاط، ص١٦٨.

فِي عَقْدِ رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ، وَجِوَارِ رَسُولِهِ»(١).

وفعل عثمان بن مظعونﷺ مثلما فعل الصديق، فصار الولاء لله وحدة والاعتماد عليه دون سواه، فقد كان في جوار الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فقال في نفسه "والله إن غدوي ورواحي فِي جِوَارِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَصْحَابِي وَأَهْلُ دِينِي يَلْقَوْنَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَذَى فِي اللَّهِ مَا لَا يُصِيبُنِي لَنَقْصٌ كَثِيرٌ فِي نَفْسِي، فَمَشَى إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَفَتْ ذِمَّتُكَ وقد رددت إليك جوارك. قال لم يا ابن أَخِي؟ لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي قَالَ لَا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ ﷻ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِهِ(٢).

هذا البعد هو الذي عبر عنه "ابن خلدون" عند بيانه لحقيقة التوحيد في قوله:" إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس" ومعناه تفعيلها لقيمه وانطلاقه من تحريك الحياة من خلال مقتضياته، استخلافًا في الأرض، وتزكيةً للنفس، وتعميرًا للبنيان الحضاري، وشهادةً على الخلق(٣).

إن مسلمي مكة لم يبرزوا لمجرد تفوقهم وامتيازهم على أقرانهم ووجود الاستعدادات عندهم، إذ ما كانت هذه السمات المميزة لتظهر لولا العقيدة التي لامست شغاف قلوبهم وأوقدت وهجًا منيرًا في عقولهم، وبصيرة في نفوسهم، فكان أن حدث التغيير الكبير في بناء الشخصية العربية ومقوماتها، وهذا الفهم يرجع الفضل الأكبر للتوحيد.

---

(١) ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، رقم: ٦٢٧٧ ج١٤ ص١٧٧.

(٢) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١: ص١٠٣.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – ص: ٤٦٠

كما أن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر وهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية ومبني على فهم دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول؛ مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع مميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه. وهو ليس تفسيرا تبريرًيا، بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على ما سواه(١). فالمعتقد كان خالصا لله، والسعي كان الغاية منه هو الله، فصارت الحضارة ذات طبيعة متميزة عن سواها من الحضارات، فهي حضارة توحيدية، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (٢).

(١) ينظر: العمري، أكرم، السيرة النبوية الصحيحة، ص:١٩ –٤٠.

(٢) الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣.

المطلب الثاني: البُعد الفكري

إن من أجل نعم الله على الإنسان تكريمه بنعمة العقل. والذي يسمو به عما سواه من المخلوقات، ودعا في أول آية نزولا بمكة إلى القراءة لتنمية العقل وتوسيع مداركه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ [1]. وكان التأكيد على الأبعاد الفكرية في السيرة النبوية في العهد المكي ترسيخ ورفعة لقيمة الفكر التي تميز بها إنسان، وبدا ذلك من خلال المعاني التالية:

أولاً: الانطلاق من الأفكار

مما يميز سيرة الرسول ﷺ في مجملها وتفصيلاتها أنها لم تكن لصالح قبيلة وسيادتها، ولا لريادة عرق وتمييزه، ولكن لفكرة دينية ذات أبعاد حضارية يتجمع حولها الجميع، فتذوب بينهم الفوارق المشتتة لقوتهم، والمانعة لتلاحمهم، والمضيقة لرحابة المبادئ عندما يتم اخضاعها لحيز ضيق مثل القبيلة.

فقد كان النبي ﷺ محتاجًا للنصرة في مكة، وبنو عامر أجابوا حين دعاهم للإسلام، لكنهم اشترطوا أن يكون لهم الأمر بعد رسول الله ﷺ، فرفض رسول الله ﷺ شرطهم؛ لأن النبي ﷺ يبني حضارة تقوم على فكرة يخلص المسلمون لها، وليس على سيادة قبيلة أو عرق. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيّ أَنَّهُ أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ فَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ ﷻ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ – يُقَالُ لَهُ بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ:«أَرَأَيْت إنْ نَحْنُ تَابَعْنَاك عَلَى أَمْرِك، ثُمّ أَظْهَرَك اللهُ عَلَى مَنْ خَالَفَك، أَيَكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِك؟ قَالَ: "الْأَمْرُ إلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاء " فَقَالَ لَهُ: أَفَنُهْدِفُ نُحُورَنَا لِلْعَرَبِ دُونَك، فَإِذَا أَظْهَرَك اللهُ كَانَ الْأَمْرُ لِغَيْرِنَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِك، فَأَبَوْا عَلَيْهِ»[2].

وهذه ما عبَّر عنه مالك بن نبي في شروط النهضة بأن الفكرة الدينية لها أثرها

---

(١) العلق: ١

(٢) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، ج١ ص ٣٥.

في الدورة الحضارية وأن رابطة القبيلة لا تكفي لتأهيل شعب لأداء رسالة تاريخية(١).

وقد أثبتت مسيرة هذا الدين أن الالتقاء والالتفاف حول الفكرة هو ما ينتج أمة، وأنه لا بد لهذه الفكرة أن تستعلي على الحيز الضيق الذي يمنع الآخر من الانخراط في الجماعة دون أي انتقاص أو مساس بحقوقه أو مكانته، وأن أي تحيز لعصبية قبلية أو عرق لا يصلح ولا يتوافق مع طبيعة هذا الدين الذي جاء به الرسول ﷺ."وكان مصدر هذه الفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم منهجًا ومستودعًا هو القرآن الكريم". لذلك جاء النداء تسع عشرة مرة بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ (٢)، وست مرات بقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (٣)، ومرتين بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (٤).

وأثبتت حركة التاريخ الإسلامي أن بناة الحضارة الإسلامية في مسيرة الإسلام الحضارية تنوعوا وتتابعوا، ولم يقتصر الجهد البنائي ولم ينحصر في عرق ولا قبيلة بعينها، فثبت أن الالتقاء حول الفكرة الدينية كان سبيلاً قيمًا ونورًا هاديًا للجيل الأول والأجيال التي بعده، وأثمر هذا المنهج خروج جماعة تفوقت على سائر المجتمعات عقديًا وروحيًا وخلقيًا واجتماعيًا وحربيًا وسياسيًا.

ومما ساعد على سرعة نضوج الفكرة وقوة انتشارها تتابع الوحي الرباني بالتوجه والتربية، وكان النبي ﷺ في تمثله لأوامر الوحي نموذجًا حيًا بين الصحابةﷺ. وكانت قوة استجابة الصحابة ﷺ واستعدادهم لقبول هذا التغيير الحضاري عجيبًا وفريدًا، حتى كأنهم أرض تتابعت عليها سنوات الجفاف ثم فاجأها المطر متتابعًا متوازناً، لا يهلك زرعا ولا يمنع طلبا، إنما هو الري والحيا والنماء والخير والثبات والنضوج والحيوية وصدق الله العظيم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ

(١) لمزيد من التفصيل ينظر: ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ص:٣٤، ٤٥.

(٢) الحج: ١

(٣) الأعراف: ٢٦ – ٢٧

(٤) الانفطار: ٦.

كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

و"كانت سيرة النبي ﷺ مع أصحابه ﷺ في ترسيخ فكرة الدين الإسلامي ومبادئه تتجسد بتتابع التعليم والتوجيه في دار الأرقم بن أبي الأرقم، بطريقة نظرية وعملية، فكانت التربية على الفكرة نظريًّا من خلال تعليم العقيدة الجديدة والأخلاق الحميدة، وعمليًّا من خلال أداء الصلاة وقراءة القرآن وقيام الليل، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار، عن أبيه قال: قال عمار: "لقيت صهيبًا على باب دار الأرقم وفيها رسول الله ﷺ، فدخلنا، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يوما على ذلك حتى أمسينا فخرجنا ونحن مستخفون"[2]، فخرج المسلمون من دار الأرقم وهم على علم بالإسلام فكرة ومنهجًا.

فالمنهج السليم الذي ربى النبي ﷺ الصحابة ﷺ عليه بقيم جديدة وتطلعات وأهداف واضحة لم تكون مألوفة في الجاهلية. فكان ملبيًا لمتطلبات الواقع الجديد، ومربيًا للنفوس التي يتم صياغتها صياغة جديدة، وأهَّلت هذا الجيل لتأسيس حضارة عظيمة. فكانوا على قلة عددهم كتبة الدعوة وحصنها فلم يسبقهم سابق ولم يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام"[3].

وساعد على قوة وسرعة تقيدهم بالفكرة وإخلاص الجيل الأول لها – رغم المعاندة والمكابرة في أول الأمر ومن أئمة الكفر في مكة– تلك الفطر الإنسانية السليمة، فقد "كانت طبائع الصحابة نقية أشبه ما تكون بالمادة (الخام) التي لم تنصهر بعد في أي بوتقة محولة، فكانت تتراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، والنزعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة، كالوفاء والنجدة والكرم والإباء والعفة، إلا أنه كانت تعوزهم المعرفة التي تكشف لهم الطريق إلى ذلك إذ كانوا يعيشون في متاهة التقليد

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ٣٥٠

(٣) ينظر: عرجون، محمد الصادق، محمد رسول الله، ج١، ص٥٣٣.

الأعمى"[١]. وتمثلت هذه الفكرة في هذا الدين ولبُّه التوحيد، الذي جمع شاردهم ووحد فرقتهم وهذب طباعهم، وأشعرهم بالواجب الذي يتحتم عليهم القيام به. وكان خير مثال على ذلك أبو بكر الصديق ﷺ، روى البيهقي أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلامِ إِلا كَانَتْ عَنْهُ كَبْوَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ إِلا أَبَا بَكْرٍ مَا عَتَّمَ مِنْهُ حِينَ ذَكَرْتُهُ وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ." ثم قال البيهقي: (قُلْتُ: وَهَذَا لأَنَّهُ كَانَ يَرَى دَلائِلَ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَسْمَعُ آثَارَهُ قَبْلَ دَعْوَتِهِ، فَحِينَ دَعَاهُ كَانَ قَدْ سَبَقَ فِيهِ تَفَكُّرُهُ وَنَظَرُهُ فَأَسْلَمَ فِي الْحَالِ[٢].

ولعل هذا ما ينقص الشعوب الإسلامية الراغبة في النهوض الحضاري. إنها قضية الواجب والحق وأي الأمرين يجب أن يتقدم وأيهما يجب أن يتأخر؟ حيث تصر الشعوب على نيل حقوقها دون السعي الجاد لأداء واجباتها. يقول مالك بن نبي "الدين هو فكرة وإن من سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم، والعكس صحيح أحياناً[٣]".

ويُعدّ التغير المنضبط بالفكرة الذي أحدث الانطلاقة الحضارية للجيل الأول في مكة من متطلبات العودة للشهود الحضاري للمسلمين في العصر الحديث، وهذا التوجه يظهر زيف كل الدعوات التي تنادي بالتغيير في الشكل والمنظر باقتناء مظاهر الحضارة الحديثة والسير في ركابها بصوابها وخطأها، وأن هذا هو السبيل القويم لوضع المسلمين على طريق النهضة الحضارية المنشودة، متغافلين أو ناسين العامل الأهم والأبرز وهو المضمون والجوهر متمثلا في المنهج الذي يغير النفس والذي يُعدّ نقطة الانطلاق إلى إنتاج الحضارة، وليس إلى استهلاك منتجات الحضارات الأخرى

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، ٤٤.

(٢) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة ج ٢ ص ١٦٤، باب من تقدم إسلامه من الصحابة، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ط: ١ – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ م.

(٣) ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ص ٤٦.

فحسب. فالحضارة لا تباع ولا تشترى؛ لأنها تفاعل إيجابي بين الإنسان والكون حوله، ينطلق من هدف وغاية، ويتوافق على هذا الهدف جموع الشعب المتطلع للنهوض الحضاري المنشود، فإذا توفرت هذه السمات في أي مجتمع بزغت بين جنباته حضارة توافق هدفه وغايته، ويصير العمل للهدف والغاية فعلاً حضاريًّا يمكِّن للحضارة ويزيد من عمرها. يقول مالك بن بني " إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة ما دامت هنالك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، الوقت لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة"(١).

إن هذا الانحياز التام للفكرة لم يكن ليقبل التجزئة ولا الانتقاص؛ لأن هذه المرحلة كانت مرحلة البناء والتأسيس، وتلك مرحلة تتطلب التمايز والنقاء ورسوخ الفكرة وعدم الخلط وتصفية الاتجاه من الشوائب التي تعيق الرؤية المستقبلية أو تحول دون بلوغ الهدف المرصود.

ومن محاولات قريش في تحويل المسلمين عن هذا التوجه ما ورد أن الوليد بن المُغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميَّة بن خلف، رسولَ الله، فقالوا: يا محمد! هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبدْ ما نعبد، ونُشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شَرِكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك كنت قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾(٢)، حتى انقضت السورة(٣). والتي تدل على الثبات على الفكرة وعم الالتفات إلى ما يناقضها أو يخالفها من أفكار.

وتلك السمات لمرحلة البناء تُعدّ نقيضًا لسمات مرحلة الأفول لأي حضارة. فتفقد

(١) ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ص ٩٣.

(٢) الكافرون: ١

(٣) وردت روايات عدة بصيغ مختلفة ضعيفة، وصحح مضمونها الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح السيرة النبوية، ص ٢٠١، وينظر: مهدي رزق أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص١٧٥.

الحضارة سمتها وتمايزها، وينشئ جيل لا يرى سبيله، ولا يعرف هدفه، ولا كيفية الوصول إليه.

وهذا التوضيح يبرز بجلاء خطأ مَنْ يدعو لنهضة حضارية إسلامية مستوحاة ومستقاة ومؤسسة على قيم ومبادئ وأسس حضارية لحضارة مغايرة لحضارة الإسلام، وكما أن الدين الإسلامي لا يقبل التلفيق من ديانات أخرى، فكذلك حضارته بسماتها وقيمها لا تقبل التلفيق والترقيع من حضارات مغايرة، وبخاصة إذا كان هذا التغاير في الفكرة التي بنيت عليها، والأسس الثابتة التي انطلقت منها.

ثانيًا: العلم

كان ولا زال العلم هو العنصر الفعال في تغيير حياة البشر للأفضل، والسبيل لرقيهم المادي، وتحسين سبل العيش، والاستفادة من الخيرات المبثوثة في الكون. بل هو الظاهرة الأبرز في تاريخ الحضارة الإنسانية.

وأمة العرب رغم أميتها كانت مؤهلة لتلقي العلوم، لفطرتها النقية وسجيتها الطاهرة، فقد "كان للعرب قواهم الفكرية ومواهبهم الفطرية المذخورة فيهم، ولم تستهلكها في فلسفات خيالية، أو جدل بيزنطي عقيم أو مذاهب كلامية دقيقة، فكانت أمة بكرًا، دافقةً بالحياة والعزم والنشاط". ولأن الإسلام متوافق مع الفطرة السليمة، فقد أعلى قيمة العلم وربطها بالتوحيد نشأة وغاية وجعل العلم سبيلاً للتعرف على الحق جل وعلا، وأن الجهل نقيض اليقين وسبيل للوبال والهلاك. قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [1]، وتحظى النصوص الواردة في مصدري الإسلام (القرآن والسنة) في طلب العلم وعلاقته العضوية بالدين وبالحضارة التي أنشأها الإسلام بأهمية ودلالة خاصة؛ لأن هذه النصوص قد طبعت عقول المسلمين على مر العصور ووفرت لهم مصدرًا للعلم

(١) العلق: ١ – ٥.

والإلهام معا"[١].

وعنون د. عبد الحليم عويس للفصل الرابع في كتابه في ظلال المصطفى بعنوان "محمد يبني أمة" حيث رأى أن هذا النداء (اقرأ) كان الغرض منه بناء الفرد الأمثل القائد وبناء الأفراد المرشحين لحمل الدعوة وبناء الحضارة عن طريق فكر هذا الفرد النبي وسلوكه[٢]. وجاءت السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني تطبيقًا عمليًا لهذا الوعي. ففي العهد المكي ربط النبي ﷺ العلم بالله ﷻ، فعندما أتته الأسئلة التي تبحث عن عوالم الغيب مثل : السؤال عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وعن الرجل الطواف الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وعن الروح، ما هو؟[٣].

وقد رد النبي ﷺ العلم بها للغيب، وفي ذلك تصحيح للعقل العربي والإنساني الذي اعتاد الكهانة والسحر والعرافة وسائل للمعرفة واليقين، ووجهها إلى المنهج الصحيح في تلقي المعرفة.

وتُعد دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي[٤]، في مكة أول مكان تعليمي تربوي، تلقى فيه الصحابة التعليم والتوجيه والإرشاد ومدارسة القرآن الكريم، فبداية نزول الوحي كان في حال التفكر والذكر، وأول آية نزلت بالأمر بالقراءة، ورغم الخوف والعنت يحرص النبي ﷺ على اللقاء بالمسلمين الجدد ليعلمهم ويفقههم، كل هذا دلائل على بُعد حضاري عظيم وهو العلم. وقد تجلى أثر هذا التعليم في موقف جعفر بن أبي طالب ﷺ في دعوته للدين الجديد والزود عن حياضه في مناظرته أمام النجاشي ببيان رائع وأدلة دامغة[٥].

(١) ينظر: سيد حسين نصر، العلوم في الإسلام، نقله للعربية: مختار الجوهري، ص:١٦.

(٢) ينظر: عبد الحليم عويس، في ظلال النبي، ص:٧٠.

(٣) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥؛ ص١٣٦.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج:١، ص٢٥٣.

(٥) ينظر لمزيد من التفصيل: المرجع نفسه ج١ ص.٣٣٦.

المبحث الثاني
الأبعاد الحضارية الاجتماعية والقيمية في العهد المكي

المطلب الأول: البُعد الاجتماعي

وتجلى فيما يلي:

أولاً: الانفتاح على الآخر

كان الانفتاح على الآخر عقيدةً وفكرًا بعدًا اجتماعيًّا حضاريًّا تم غرسة مع بداية الإسلام في العهد المكي، وتم عرض ذلك الانفتاح في صورة حوار حضاري يهدف للوصول للأقوم والأصوب بعيداً عن الانغلاق أو الانزواء أو التقوقع على الذات، والذي يُولّد التعصب والتشدد، "ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية"(١).

وأحداث السيرة النبوية في العهد المكي زاخرة بالعديد من نماذج هذا الانفتاح؛ لمعرفة ما عند الآخرين، وليعرف الآخرون ما عند المسلمين. فأما ما عند الآخر المشرك والملحد فقد كان معروفًا مألوفًا؛ لأن المسلمين الأوائل كانوا من أهل البلاد ولا يخفى عليهم دين أقوامهم وفكرهم، ولكن الهدف الأصيل من الانفتاح كان إرساء المبدأ ليتعلمه المسلمون ويتمثلوه في بناء حضارتهم، وفائدة أخرى وهي اغتنام هذا المبدأ ليتعرف المشركون على ما عند المسلمين من دين جديد ومبادئ قويمة، فيكون ذلك فرصة سانحة لنشر الدين بأسلوب حضاري يبني وعي الإنسان وينميه بلا إكراه ولا إجبار، ويدله على الصواب من أقصر طريق.

لقد كان هذا الانفتاح من نتاج تربية القرآن للنبي ﷺ وإرشاده في هذه الميدان

(١) العمري، أكرم، السيرة النبوية الصحيحة، ص: ١٣٣.

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، وقوله: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[2]، وذلك ماثل في كثير من لقاءات المشركين وحواراتهم مع الرسول ﷺ مثل حوار عتبة بي ربيعه مع رسول الله ﷺ[3].

وتعدّ النظرة الإنسانية للآخر بمثابة القاعدة الصلبة التي انطلقت منها الحضارة الإسلامية منفتحةً على الآخر مستوعبةً للأجناس تحت لوائها، كما وقت النظرة الإنسانية للآخر الحضارة الإسلامية في نشأتها من عامل خطير من عوامل انهيار الحضارات وهي النظرة المتعالية على الغير. فكم من حضارة كان لها شأن كبير في التاريخ الحضاري لكنها لم تستوعب الأجناس الأخرى بل احتقرتها، فكان هذا من عوامل تقهقرها واندحارها، "فاليونانيون في إيمانهم بأنهم أذكى شعوب الأرض وأقربها للكمال واختصاص أنفسهم بكل فضيلة قضوا على أنفسهم بهذا الموقف، لأنهم بعد أن انتصروا على الفرس في حروبهم الطويلة المعروفة ركبهم غرور فتعففوا عن العمل واستكثروا من العبيد لخدمتهم، وقامت الحروب بين بعضهم البعض وانقسموا إلى أحلاف يسفك بعضهم بعضًا، فوهن أمرهم وبطلوا عن العمل، وانصرف قادتهم إلى العبث والاستمتاع بالحياة، وأوغل علماؤهم في التفلسف فابتعدوا عن الحياة، فانقض عليهم المقدونيون، وأزالوا دولهم بقيادة الإسكندر"[4]. كما كان الرومان يحتقرون الغير ويعتزون بأنفسهم، وبلغ من اعتزازهم بأنفسهم أنهم كانوا إذا أرادوا تكريم شخص أو شعب منحوه حقوق الرومان أي رفعوه إلى مقام جنسهم"[5]. ولا شك أن هذا لا ينسجم

(١) سبأ: ٢٤.

(٢) البقرة: ١١١.

(٣) لمزيد من التفصيل ينظر: السيوطي، جلال الدين، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، تحقيق: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، باب مراسيل محمد بن كعب القرظي، ج ٢٤، ص١٢٣.

(٤) حسين مؤنس، الحضارة، ص٥٠.

(٥) المرجع نفسه، ص٥١.

مع الطابع الإنساني للحضارة التي نسجها الإسلام وأرسى قواعدها.

وفي أحداث السيرة في العهد المكي رحل الرسولﷺ إلى الطائف ليعرض دعوته لعله يجد من ينصره وفي هذه الرحلة وأحداثها الكثير من العبر والأحداث الجسام، ومن بعض معانيها ما يدل على الانفتاح على الآخر ورفض فكرة الاعتزال أو الانكماش، ورغم ما لقيه من عنت وصدود عن دعوته في الطائف" قرر الدخول إلى مكة الكافرة ؛ ليواصل جهاده الميمون ويستثمر كل ما يستطيعه من أجل دعوة التوحيد، فلم يختر النبي الاعتزال أو الانسحاب من الحاضر أو الهجرة المستمرة بل تقدم نحو البديل وهو ضرورة الوجود على الأرض ذاتها التي يقف عليها الكافرون، وليس الانسحاب منها واعتصار مؤسساتها واستثمار علاقاتها وتحوير غاياتها ليتغذى بكل ذلك مجتمع المؤمنين الذي سيولد من أحشائها(١). عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "(٢).

وهذا البعد الحضاري بقدر ما أبان ما عند الآخر من الباطل وأظهر زيفه وضعفه، بقدر ما رسَّخ ما عند المسلمين من حق وأبرز ما فيه من صحة وقوة، وأرسى

(١) التيجاني عبد القادر حامد، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، ص ١٧٦.

(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ بَدْءِ الخَلْقِ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، رقم ٣٢١٣. ج ٤ ص ١١٥.

معالم مبدأ حضاري كان له أثره على حضارة المسلمين نشأة واستدامة. فكفار مكة لم يملكوا الأدلة المقنعة أمام حجة القرآن البالغة، فالانفتاح كشفهم وعراهم أمام أنفسهم، فلم يتمالك المنصفون منهم إلا الإذعان لسلطان الدين، وهذا ما يجب على المسلمين عمله في العصر الحاضر.

ثانيًا: العلاقة الإيجابية الفعالة مع الآخر

امتاز العهد المكي في السيرة النبوية ببعد حضاري مهم وهو العلاقة مع الآخر، وقد يكون هذا الآخر من قبيلة النبي ﷺ، أو من مجتمع مكة المتعدد القبائل والبطون، أو من الوافدين على مكة في موسم التجارة والحج. وقد اتسمت تلك العلاقة بالتحضر من حيث التزامها بالقيم التي تحافظ على العلاقة مع الآخر بإيجابية، فكانت قيم صلة الرحم مع الأقارب تجعل الرسول ﷺ يخص أقاربه بالدعوة، والحرص على هدايتهم. ومواقفه مع عمه أبي طالب من أبرز الأدلة على ذلك، وقد رسخ القرآن الكريم هذا البعد الحضاري في الدعوة عندما أمر النبي ﷺ أن يدعو أقاربه خاصة، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (١).

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جَمَعَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُونَ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا قَالَ: وَقَالَ لَهُمْ: "مَنْ يَضْمَنُ عَنِي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ ". فَقَالَ رَجُلٌ –لَمْ يُسَمِّهِ شَرِيكٌ –يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ كُنْتَ بَحْرًا مَنْ يَقُومُ بِهَذَا؟ قَالَ: ثُمَّ قَالَ الْآخَرُ، قَالَ: فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا»(٢).

كما كانت مسيرة النبي ﷺ مع غير الأقارب متسمة بالقيم حتى قبل البعثة النبوية، فلم يكن متحيزًا لقبيلة يوم وضع الحجر الأسود في مكانه في مكة، بل ارتضوه ﷺ

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) السيوطي، جلال الدين، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، مسند علي بن أبي طالب ﷺ ج ١٧، ص٤١٩، وقال إسناده حسن.

حكما لأنهم رأوا فيه الأمانة والصدق والحكمة، وتجلى ذلك في تصرفه المبدع الذي حمى القبائل من النزاع والشقاق(١).

واتسمت علاقة النبي ﷺ في مكة مع الآخر بالإيجابية لقيامها على قيم بنَّاءة مثل الصدق والأمانة وصلة الرحم والعون على نوائب الدهر، وتلك السجايا الحضارية هي مضمون جواب السيدة خديجة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ عندما جاء يرجف بعد نزول الوحي عليه في غار حراء فقالت له: «أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»(٢).

وكان الصحابة ﷺ في مكة على هدى نبيهم ﷺ في هذه السجايا فأبو بكر الصديق ﷺ خرج للهجرة للحبشة بعدما أذن له الرسول ﷺ «حَتَّى بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»(٣).

واستطاعت المسيرة النبوية المباركة أن تشيد صرحًا حضاريًّا إنسانيًّا من خلال العلاقة الإيجابية، فلم يثبت أن النبي ﷺ رد السب بالسب، ولا الشتائم بمثلها، ولا الإيذاء بما يقابله، ولا اللعن بلعن يشابهه، بل كان رحمة في أقواله وأفعاله. كما لم

(١) ينظر: السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي – عبد الملك بن هشام، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج٢،ص١٨٣.

(٢) رواه مسلم، أبو الحسين بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي على الرسول ﷺ. رقم ٥٢٥ج١، ص:١٦٠.

(٣) البخاري، محمد بن عبد الله إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ و أصحابه ، رقم ٣٦٤١، ج ،٥ ص ٥٨.

يمنعه كفرهم من وجود علاقة إيجابية معهم تمثلت في إكساب المعدوم، وقرى الضيف، والعون على نوائب الدهر، وحفظ أماناتهم، وكانت العلاقة ذات فاعلية حيث وازن النبي ﷺ بين دعوتهم وأدائه لحقوقهم، رغم كفرهم به وإنكارهم لدعوته، فلم تؤثر ردودهم على دعوته في حقهم عليه وواجبه تجاههم. مما أثر في نشر دعوته واستمرار رسالته، ولا تقوم حضارة ذات صبغة إنسانية إلا بوجود هذه العلاقات الإيجابية بين أفرادها، وهذا ما فعله مسلمو مكة، فكانت النظرة الإنسانية المتكافئة أساساً لإقامة حضارة الإسلام في بداية نشأتها وعامل من أهم عوامل الاستمرار والتوسع في قرون متتالية.

ومن الأدلة على تلك العلاقة الإيجابية مع الآخر اجتماع الأجناس والقبائل حول رسول الله ﷺ عند بداية الدعوة، مما أعطى صورة واضحة على طبيعة هذه الدعوة وعلى قيمها الحضارية التي تسعى لتطبيقها. فخباب الأرت من العراق، وبلال من الحبشة، وأعداد شتى من قبائل العرب المختلفة. وكان أي تجاوز لهذه القاعدة الأصيلة والبعد الحضاري الفذ يقابل بالرفض حتى ولو كان ذلك من الرسول صاحب الرسالة الخاتمة، فقد عاتب الله ﷻ نبيه ﷺ عندما عبس في وجه عبد الله بن أم مكتوم المسلم الموحد الأعمى (الفقير)، من أجل الإنصات لجماعة من المشركين. فَرَوَى أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ كَانُوا عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِمْ، فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْطَعَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَلَامَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ[1]، تتلى إلى قيام الساعة لترسخ تلك المعالم الحضارية الراقية، قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [2].

"إنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق بسبب الحسب والنسب أو الملأ والجاه،

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج١٩، ص٢١١.

(٢) عبس: ١ – ٧.

فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على المئات من أمثال أُبي بن خلف"[١]، لقد كانت البداية لا تعتمد على وفرة مادية لدى أصحاب الحضارة الناشئة، وإنما كان الاعتماد على جانب معنوي تُبني عليه النفوس، وهذا توفر في الحضارة الجديدة قيمًا ومعانٍ تهفو إليها النفوس من محبة وإخاء وتعاون وتفان وتضحية وعدل ومساواة، وكلها قيم حضارية يصعب تجاوزها، ولا تغني عنها الوفرة المادية المجردة من هذا القيم. بل إن الناظر لقيام المجتمعات في جانبها المادي يرى أن غاية هذا الجانب المادي هو الوصول للجانب المعنوي من كفاية وأمن وسلام ومحبة، والحضارة الإسلامية في زمن الرعيل الأول خطت رسْم حضارتها بالتركيز على هدف الحضارة وغايتها وقام هذا الرعيل بالحفاظ عليه وهذا ما تقوم عليه الحضارات، "وكانت التوجيهات النبوية المستوحاة من القرآن الكريم نبراسًا هاديًا لهذه الجماعة الوليدة لتنصهر في بوتقته، ولهذا تسر الناظرين لدرجة أن بعض الأصوليين قالوا: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه ﷺ لكفوه في إثبات نبوته "[٢].

وبمقارنة هذا البعد الحضاري في الحضارة الإسلامية وما يفعله أتباع الحضارات الأخرى وخاصة الحديثة منها يبدو البون شاسعًا بين حضارة إنسانية بكل أبعادها وأخرى مادية لا تراعي إنسانية الإنسان ولا تحسن التعامل معه.

ثالثا: الجماعية

الحضارة فعل جماعي ينهض به كل أفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم، "فالأفعال الفردانية المقصد والغاية لن تكوِّن فعلاً حضاريًّا، لأنها لا تسعى للحضور في المجموع ولا تهدف إلى نفعهم"[٣]. وقد تجلى هذا المعنى في آيات الاستخلاف والتي

(١) العمري، أكرم، السيرة الصحيحة، ص ١٦٧.

(٢) القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس، الفروق، تحقيق: عمر حسن القيام، ص ٢٦٥.

(٣) نصر محمد عارف، الوقف واستدامة الفعل الحضاري،ص:٦، (https://www.academia.edu)

يغلب عليها صيغة الجمع وليس الإفراد، ولعل في هذا إشارة إلى أن التكوين الحضاري للأمة لا يُبني ولا يكتمل بناؤه إلا عندما يكون عملاً جماعياً، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[1]، فالخطاب بميم الجماعة يدل على أن الاستخلاف في الأرض على مراد الله من الخلق لا يكون إلا بعمل جماعي. وقد هيأ الله للأمة في نشأتها في العهد المكي نماذج من أعراق وجنسيات تمثل ما ينبغي عليه اجتماع الناس وتساندهم في بناء الحضارة.

هذا البعد الحضاري مهم للغاية، فالنهوض الحضاري لا يكون بجهد فردي ولا بقانون رئاسي يصدر من قائم بالأمر أياً كانت قوته وسلطاته، لكنه فعلٌ عام توافقي ينبعث من العقول والضمائر والنفوس، فيندفع الجميع نحو وجهة واحدة متوافق عليها، وتتجلى آثارها في انبعاث وشهود حضاري. وقد كان هذا ماثلاً في جيل الصحابة في مكة بقيادة رسول الله ﷺ بما يشبه الإعجاز، بل هو الإعجاز الحضاري في تكوين الذات الحضارية للأمة الإسلامية متمثلة في الرعيل الأول من الصحابة ﷺ الذي انطلق من الدين وفي سبيل الدين لا يلوي على مال أو جاه أو سلطان أو قبيلة. ولذلك، "لا يكفي لعودة النهوض الحضاري عودة النخبة بل لا بد من عودة الجماهير المسلمة بعد أن طال البعد وكثرت الدروس وقل الاعتبار"[2].

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون من أوائل من أسهم في البناء الحضاري للأمة في العهد المكي العديد من الأعراق والجنسيات ممن أسلموا في أول الدعوة مثل بلال العبد الحبشي الذي كان يزدريه أهل مكة بعنصرية بالغة، وخباب بين الأرت من العراق. والطفيل بن عمرو من اليمن، وذلك حتى تندحر هذه النزعة العنصرية من

(١) الأنعام: ١٦٥.

(٢) محمود شيت خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، ص٢.

النفوس، وتترسخ فيها قيمة الإخاء الإنساني الذي يجعل المجتمع مجتمعًا متعارفًا يتجه نحو غاية واحدة يسعى الكل إلى تحقيقها رغم التباين بين أفراده. يقول عمرو بن عبسة رأيت رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ، وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ(١).

كما تجلى هذا البعد الحضاري في نشاط الجماعة المؤمنة في مكة، فتحمل كل واحد منهم تبعة هذا الدين، في إنكار للذات قل أن يوجد أو يحدث مثيل له في التاريخ، ولم يتباطأ هذا الجيل في أداء واجباته، فكوَّنوا أساسًا لبناءٍ حضاريٍ متينٍ. وكان الصحابة في إصغائهم للتعاليم نموذجًا حضاريًّا فذًا، جميع بين التعليم والتطبيق والمسؤولية عن هذا المشروع الحضاري الجديد مشروع ولد مع ميلاد الفكرة ولم يتم استيراده من حضارات أخرى. ظهر ذلك في دور الأرقم بن أبي الأرقم حيث جعل داره مقرًا للعلم والتعليم، وأبو بكر الصديق سارع إلى إنفاق ماله في حل المشاكل الطارئة على المسلمين الجدد وخاصة العبيد حيث اشتراهم وأعتقهم، وعمر بن الخطاب منذ أسلم اجتهد في رفع الظلم عن المسلمين، وفي هذا إشارة إلى دور كل مسلم في نصرة الحق ومسؤوليته تجاهه. ومن خلال هذه النماذج الصادقة من الصحابة ظهرت وانتشرت بشائر النصر والتمكين التاريخية نابعة من روح الأمة الوثابة المتحمسة والمستقرة في نفوس أفرادها، وأصبح كل واحد منهم لبنة في صرح يتم تأسيس أركانه، حتى غدا هؤلاء الصحابة معجزة في تكوينهم وعطائهم الحضاري.

والتاريخ الإسلامي يدلل بأحداثه عبر الزمان أن الأمة الإسلامية تتلازم فيها النهضة الحضارية مع هذا البعد وجوداً وعدماً، فعصور النهوض الحضاري هي

(١) صحيح مسلم، باب إسلام عمرو بن عبسه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم ٢٩٤، ج ١، ص ٥٩٦

العصور التي يزدهر فيه هذا البعد فكرًا وسلوكًا حضاريًّا، فيكون الفعل الحضاري جماعيًّا وتنتفي فيه الفردانية والعنصرية، ويحمل راية الأمة الأجدر على رفعها وحمايتها.

كما أن عصور الانحطاط هي العصور الإقصائية التي تتشظّى فيها الأمة وتشيع فيها النظرة الفردانية والعنصرية الضيقة بديلاً عن سعة الإسلام الذي أسَّس لوحدة النوع البشري قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[1]، ولذلك لا يمكن للمجتمعات الإسلامية أن تستعيد الشهود الحضاري لها إلا بحراك جماهيري عام يكون فيه كل واحد بمثابة شمعة مضيئة تبدد ظلمات التخلف وترشد السالكين نحو الهدف المعلن والغاية المأمولة.

إن جميع المحاولات للعودة للشهود الحضاري للأمة والتي شهدها تاريخ الأمة في عصرها الحديث لم يكتب لها النجاح المأمول رغم ما قدمته للأمة من رؤى وما أحدثه من تغيير جزئي، ولو في مجال الفكر والرؤى مثل محاولات الإمام محمد عبده أو محاولات الأفغاني أو ابن باديس، أو النورسي، وقد يكون ذلك راجعًا لكون هذه المحاولات لم يُمَكَّنْ لها لتكوّن توجهًا جماهيرًا عامًا، وتم التضييق عليها ليتم حصارها في نطاق ضيق لا يتعداه، ولست في مقام تقييم لتلك الحركات الإصلاحية، ولكن هذه اللفتة ذكرتها لبيان الفارق بين مجتمع المسلمين الأوائل وبين حال المجتمعات المسلمة تجاه هذه الحركات، فبينما كان الرعيل الأول لا يتخلف واحد منهم عن التفاعل البنَّاء مع هدف الرسالة وغايتها واعتبار نفسه جنديًّا في ميدان البناء الحضاري الجديد، وعلى استعداد تام للتضحية بالنفس والمال والراحة والأنس بالوطن والقبيلة في سبيل نصرة هذا المبدأ وتلك الفكرة التي آمن بها، نجد أن هذه الحركات الإصلاحية لم تأخذ هذا

(١) الحجرات: ١٣.

الزخم الجماهيري العام بالإيمان بهذه المحاولات الإصلاحية والعمل على إنجاحها مما أفقدها عنصرًا مهمًا للتأثير والنجاح وهو عدم الالتفاف الجماعي حول الفكرة الإصلاحية التي نادت بها تلك المحاولات.

المطلب الثاني: البُعد القيمي

إن قوة أي أمة إذا لم تنضبط بمنظومة قيمية تضبط مسارها وتنظم حياة أفرادها، تتحول هذه القوة لأداة بطش وفتك وظلم للآخرين؛ ولذلك حرص النبي ﷺ في العهد المكي إلى إعادة الاعتبار للقيم الإنسانية، مثل قيم الحرية – التوازن – الاحترام. والأسس القيمية في الإسلام وإن كانت منبثقة من الأسس العقدية ومتأخرة عنها من حيث الرتبة والتسلسل الطبيعي والمنطقي إلا أنها اقترنت بها اقترانًا وثيقًا منذ اللحظات الأولى لبداية الوحي، "فقد ظل الرسول طوال السنوات الأولى من دعوته يواجه الجانب الأعظم من اهتمامه إلى توضيح أصول العقيدة وأصول الأخلاق" والأخلاق جزء من القيم التي رسخ أصولها الإسلام(١).

فالنظرة الحضارية للإنسان هي التي تزن الإنسان وتقيمه من خلال سماته المعنوية قبل سماته المادية، وقد كانت الجاهلية في مكة مثل الجاهلية الحديثة تزن الناس بميزان المادة وليس بميزان القيم والمبادئ، فلما جاءت الرسالة الخاتمة على يد بشر يتيم فقير انتفضت الجاهلية وأعلنت عن وجهها القبيح، وأفصحت عن اعتراضها بأن اتِّباعها لهذا اليتيم الفقير ليس هو المعيار المتداول بينهم في التقدير والاتباع، ولذلك قالوا: كما حكى القرآن: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴿٣١﴾ ﴾(٢)، فأعادت الشريعة الخاتمة الأمور إلى نصابها، وجعلت الحكم والتقييم يكون للقيم الخُلقية لا للقيم المادية، قال تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي

(١) عبد الحميد مدكور، دراسات في العقيدة الإسلامية، ص ٥٤.

(٢) الزخرف: ٣١.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

"إن الحضارة في الحقيقة ليست تقدماً مادياً معكوف الصلة بالأخلاق والضوابط والحدود التي تحفظ الكيان الإنساني والكيان الاجتماعي وهذا مصدره الدين"[2].

ومما يثير العجب هو هذا التلاقي القيمي في شخصية القيادة والاتباع – فخديجة تقول لمحمد ﷺ «إنك لتصل الرحم»[3]، وابنُ الدَّغِنَة يقول لأبي بكر ﷺ «إنك لتصل الرحم»[4]، وجعفر ﷺ يقول أمام النجاشي «بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلعُ ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدماء والفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصن»[5].

كما أن هذا التلاقي القيمي علامة مهمة على عامل من عوامل إخفاق المسلمين في العصر الحاضر في استعادة النهوض الحضاري للأمة. وهو تخلفهم عن الفكرة وما ينتج عنها من منظومة قيمية إنسانية تنبئ عن ولادة الإنسان منتج الحضارة وليس الإنسان المستهلك لمنجزاتها، رغم ما قد يتزين به من مظاهر المدينة والتحضر. ومن القيم الحضارية التي كان لها دورها البارز في البناء الحضاري للأمة الإسلامية،

---

(١) الزخرف: ٣٢ .

(٢) الحضارة في مفهوم الإسلام على طريق الأصالة الإسلامية ٤، أنور الجندي، دار الأنصار، ١٤٩٩، ١٩٦٩م، ص ٢٤.

(٣) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي على الرسول ﷺ. رقم ٥٢٥ج١، ص:١٦٠.

(٤) البخاري، محمد بن عبد الله إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ و أصحابه ، رقم ٣٦٤١، ج ،٥ ص ٥٨.

(٥) محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر، جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد، تحقيق وتخريج: أبو علي سليمان بن دريع، رقم ٦٣٩٨، ج٢، ص:٥٣٧.

الحرية والتوازن والاحترام.

أولاً: قيمة الحرية

الحرية ضرورة ملازمة للتحضر تلازم النور للنهار، وإن الاعتداء على الحرية هو حرمان من حق الحياة، إذ لا قيمة لحياة إنسان إلا بمقدار ما يتمتع به من حرية. "فهي تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة وتعلم اللسان بيانًا وتمد اليراعة بالبراعة"(١). والرسالة الإسلامية منذ بزوغها والدعوة إليها سارعت إلى عودة الإنسان إلى حريته وإنسانيته بعد أن أبعدته عنها الجاهلية المتحكمة التي جعلته عبدًا لصنم أو وثن أو بشر أو هوى، كما حرصت على تحريره من تحكم الغير فيه من خلال نظام العبودية والذي جعله سلعة تباع وتشترى. وهذه النظرة التكريمية للإنسان تم تطبيقها على المسلمين الجدد بكافة ألوانهم وأعراقهم، وكانت مساعي الصديق أبي بكر في تحرير العبيد من أبرز الدلائل على هذا البعد الحضاري.

وقد رسم الإسلام لأتباعه طريقًا للحرية أعاد للإنسانية كرامتها، وفارق بها ما اعتادته الجاهلية من حَجْر على عقل الإنسان وجسده؛ فقيده ومنعه من الإبداع والإنجاز، والاستفادة من الإمكانات التي وهبها الله له. فكان مما رسخه الإسلام من معاني الحرية حرية الفكر والقدرة على التحرير من سيطرة النوازع والشهوات وتعزيز سيادة التعقل على سلوكيات الإنسان ولا يمكن بناء حضارة دون وجود هذا البعد الحضاري المهم.

لذلك، شكَّلت دعوة القرآن للقراءة والعلم والتفكر والتدبر دافعًا لمسلمي العهد المكي للتحرر من أسر التقليد والانفكاك من أسر العادة وتوسيع الأفق نحو التفكير الحر بعيدًا عن التعصب والانغلاق أو القهر والإرغام مما رسخته الجاهلية قرونًا طويلةً. "فالجهل في حقيقته وثنية؛ لأنه لا يغرس أفكارًا بل ينصب أصنامًا، وهذا هو شأن الجاهلية"(٢).

(١) محمد الخضر حسين، الحرية في الإسلام، ص: ٧٢-٧٣.

(٢) ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ص:٥٦.

ومن مميزات المسيرة النبوية المباركة أنها كانت دعوة صريحة لإطلاق النظر في كل القضايا، وتحرير العقل مما قيَّده، وشل حركته وأفقده قيمته من هوى متبع أو تقليد أو جهل أو عناد، وهذا النهج جاء استجابة لدعوة القرآن الكريم لذلك المبدأ في قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

والتطبيق لهذه البعد الحضاري كان عمليا، فلم يحمل النبي ﷺ أحدًا على قبول دعوته كرهًا، أو تقليدًا بغير قناعة داخلية، وتعد قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه نموذجا للحرية التي كانت سمة للدعوة في العهد المكي[2].

ولم تستجب المسيرة النبوية في العهد المكي لما كان معهودًا ومتوارثًا ومسلمًا به في هذه البيئة، من استسلام للتقاليد، واعتقاد في الخرافات وإيمان في الطيرة والتشاؤم، بل عارض وهدم كل ما يعطل العقل أو يعوق عمله فكانت "السيرة النبوية دعوة للعقل ليعمل، وللفؤاد ليعتبر، وما كان محمد النبي رجل خيال يتيه في مذاهبه، ثم يبني حياته على الخرافة، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها. فإن أراد شيئًا هيأ له أسبابه، وبذل في تهيئتها- على ضوء الواقع المر- أقصى ما في طاقته من حذر وجهد. وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد، أو تنشط له حيث يكسل، أو تحتاط له حيث يفرط، ولم تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب والمسببات أساسًا ولا طلاءً في بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة"[3]. وتم التركيز على ذلك في الفترة المكية؛ لأنها عهد التأسيس والبناء الفردي الأول والذي كان منوطا به أن يفك أغلال الجاهلية المتحكمة، ويهدم صرحها، ويقيم مكانها بناء

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) ينظر: السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي – عبد الملك بن هشام، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ٣ ص٢٢٦م.

(٣) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص٣٩.

آخر لا يكون فيه للجهل أو للعماية والخرافة أو للتقليد والتقييد مكانًا أو مكانةً تقيد حرية الإنسان.

والمجتمع المكي في بداية الدعوة أبى أن يعطي المسلمين الأوائل هذه القيمة الحضارية، بل عمل على عرقلة كل سبيل يؤدي إليها، فرفض دينهم وتدينهم، وحاول منعهم من أداء فرائض دينهم بحرية، ورغب في أن يعود المسلمون الجدد إلى حظيرة الجاهلية ثانية بعد أن هجروها، مما جعل المسلمين يخرجون من مكة ثلاث مرات: مرتين إلى الحبشة، وثالثة إلى المدينة؛ رغبة في العثور على بيئة تتوفَّر فيها قيمة الحرية، ورغم ما انتزعه المسلمون من نسمات الحرية في مكة إلا أن هذه الحرية المنتزعة لم تعط كامل ثمارها المرجوة لعدم توفر القيم المساندة لها من أمن وأمان وقوت وسلم اجتماعي يضمن كرامة الإنسان واستغناءه عن غيره، فقد فرضت مكة على المسلمين الحصار الجائر في أمور الدين والدنيا، ففي أمور الدين كان التضييق والرفض، مثلما طلب المشركون من أبي بكر أن يصلي بعيدًا عن أعين الناس، وأن يصلي في بيته. وكان من يجرؤ على إعلان دينه بحرية يناله من التعذيب والإهانة الكثير حتى ولو كان ذلك رسول الله ﷺ والأدلة على ذلك كثيرة ولا يتسع لها هذا البحث.

ومما سبق يتبين أنه لا رجوع للأمة إلى شهودها الحضاري إلا عندما تتحرر العقول من أسر التبعية، وأغلال التقليد، وصنوف الاستعباد التي حرمت الأفكار نعمة الولادة، ومنعت الآراء من رحابة الانتشار والذيوع، وبلا خوف من طاغية مستبد يقيم سلطانه على أساس من الجهل والتخلف.

ثانيًا: قيمة التوازن

يُعد التوازن بين المادية والروحية من خصائص الدين الإسلامي، وبُعدًا قيميًّا حضاريًّا تجلى في سيرة الرسول ﷺ. فلم يدع النبي ﷺ الناس لرهبانية كرهبانية لنصارى ولا للانغماس في المادية التي كانت تسيطر على الأفكار والمشاعر لدى أهل مكة

واتباع الحضارات المجاورة، ولم ينعزل النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في الجبال والكهوف متجاهلين دولاب الحياة يسير خلفهم كما يشاء، وإنما كانت سيرتهم وحياتهم نموذجًا للتوازن بين المادة والروح. ومن هذا المنطلق يتجه المسلم في إعادة صياغة الزمان والمكان إلى إعادة بنائهما، وليس إلى الهروب أو التخلص منهما. "فلم يكن فعل النبي وصحابته إعراضا عن الحياة. كلا. بل هو انشغال بالحقائق العليا التي تصلح بها ويسخر فيها المال. والرجال الكبار لا تشبعهم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلى الحق. ولا يريحهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة، إذا رأوا المساخر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس، وتتعرى فيه الدنيا من كل بر وخير، وإن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية. ويلقون غبنا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الحق الذي يريدون فرضه"(١).

وبهذا النهج التطبيقي لهذا البعد القيمي استطاعت الحضارة الإسلامية أن تسلك سبيلها في دون تعثر أو تأخر، كما حفظ لها توازنها المادي والمعنوي فعمرت القلوب والدروب. ومن وقائع التاريخ الإنساني يتضح أن الخلل في هذا الميزان كان" القدر المشترك الذي أوقع الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء. والخلل يكمن في قيام الحضارة والمدنية على أساس من القيم المادية وحدها دون أن يكون ثمة مَثَلٍ أعلى يقود هذه الحضارة والمدنية في سبيلها المستقيم. ذلك أن "الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب، فإن عَدِم أهلها التفكير الصائب والمثلَ العليّ الصحيح استحالت الحضارة في أيديهم إلى وسيلة للنزول بها إلى درك الشقاء والاضطراب، أمَّا إنْ أُوتي أهلُها مقياسًا من العقل الرشيد الذي قلما يأتي إلا بواسطة الدين والوحي الإلهي. فإن القيم الحضارية والمدنية وسائل جميلة إلى السعادة التامة في مختلف أنواعها ومظاهرها"(٢).

---

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ٥٩.

(٢) ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة ٤٣ – ٤٤.

ودلت أحداث السيرة النبوية في تطبيقاتها العملية في العهد المكي لهذا البعد الحضاري هي أن "المسلم في إعادة بناء الزمان والمكان، لا يدعو إلى إشباع إرادته الخلاقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالي في الكون، وليست عملية غزو للطبيعة ولا قهر لها، على شاكلة سلوك الإنسان الغربي. ويتحصن المسلم بتلك الرؤية الكونية من الإصابة بأي من آفات ثلاث: ادعاء القدرة علي قهر الطبيعة، الإصابة بغرور القوة حال نجاحه، الإصابة باليأس و بالإحساس بالعجز حال فشله[1]". حتى لفت ذلك التوازن أنظار مشركي مكة وجعلوه مدار سخريتهم، ويصفها القرآن الكريم بأنها ضلال وتيه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[2].

وكان الصحابة على هدي نبيهم فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل، لا يمنعهم علمهم وإيمانهم بالحق، وخشوعهم لله من القيام بشؤونهم الدنيوية، من بيع وشراء، وحرث، ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون.

إن مما لا مرية فيه أن العلاقة بين النهوض الحضاري والتمكين للمسلمين في الأرض وإقامة الدين متلازمة مترابطة، فلن يتمكن المسلمون من إقامة شعائر دينهم حق القيام إلا عندما يتمكنون في الأرض، وتصير مقدراتهم بأيديهم، ويوازنون بين المادة والروح، وابتعاد المسلمين اليوم عن ركب الحضارة يرجع – ضمن أسباب عدة– إلى عدم تطبيقهم لهذا البُعد الحضاري الأصيل، فهم بين فرق زهَّدت في العمل وتركت الحياة، وبين آخرين استعبدتهم المادة، فعاشوا أجسادًا بلا أرواح، وسمنت ذواتهم،

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي، التوحيد ومقتضياته في الفكر والحياة، ص٢٠٠.

(٢) الفرقان: ٧ – ٩

ونحلت أو ضمرت أرواحهم.

ثالثا: قيمة احترام حياة الإنسان وإنسانيته وكرامته

من الأبعاد الحضارية في السيرة النبوية في العهد المكي الحفاظ على الإنسان حيًّا كريمًا. وتجلى ذلك في الحفاظ على النفس من التعذيب والقتل، فالصحابة ﷺلما اشتد عليهم الأذى وقُتلت سمية، وكان المشركون يعذبونهم، فروا إلى الحبشة حفاظاً على النفس مما يترصدها من مخاطر نال منها جمع من الضعفاء نصيبًا موفورًا. وهذا بعد حضاري عظيم، فالإنسان هو بداية وهدف كل عمل حضاري، والحفاظ عليه حرًا سليمًا معافًا آمنًا مستقرًا كريما هو الخطوة الأولى لكل حضارة ناشئة. وهذا ما حدث في المجتمع المكي من خلال الهجرة للحبشة، وعتق العبيد، والتخطيط والسعي للهجرات الثلاث.

"إن نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة، متوقف على معرفة تامة لطبيعة موادها وعناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ وما قامت في التاريخ الإنساني حضارات، أفسدت بدلاً من أن تصلح، وأشقت بدلاً من أن تسعد، إلا لأن أصحاب تلك الحضارات أخطأوا في تصور حقيقة كل من الإنسان والكون والحياة"(١).

واحترام إنسانية الإنسان وكرامته من الأبعاد الحضارية التي ترسخت في السيرة النبوية واقعًا عمليًّا، فمنذ أن بدأ نزول القرآن ليتحدث إلى الإنسان وعن الإنسان اختلفت حياة المسلمين في مكة، ولا أدل على ذلك من ذكر كلمة الإنسان مرتين في الآيات الخمس الأولى نزولاً من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾(٢)، هذه الإنسانية هي التي تعنى بتكريم الإنسان " وهذا التكريم حركة واعية فاعلة ذات بصيرة

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة، ص ٢٤٠.

(٢) العلق: ١ – ٥.

تفعل كل ما يقتضي زيادة تكريمها وكرامتها دون إفراط يُحْدِث نوعية إنسانية أخرى تتسم بالطغيان والكبر والبطر، أو تفريط يُحْدِث حالة من عقلية قطيع لا تعرف من سلوك سوى الإذعان، وفقدان هذا التكريم هو بداية لفقد الإنسان لذاته، بل هو فقد لكل قيمة إنسانية"(١).

وجاءت آيات الكتاب العزيز تؤسس لهذا المعنى العظيم، عَنْ خَبَّابٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(٢)، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَّرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) (٤).

فالإسلام في انتصاره لإنسانية الإنسان يخالف في هذا كل ما عداه من ملل تم تحريفها، أو أديان بشرية تم وضعها، فلم ينزل من قدره أو يحط من مكانته، تحت أي مسوغ أو علة "بل الإسلام غالي بقدر الإنسان وأعطاه جزاءه الحق على الرفعة

(١) عبد الفتاح، سيف الدين ، العلاقات الدولية في الإسلام، "مدخل القيم"، ص١٠٢.

(٢) الأنعام: ٥٢.

(٣) الأنعام: ٥٢.

(٤) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، باب مجالسة الفقراء، ج٢، ص ١٣٨٢.

والضعة، بخلاف النصرانية التي تجعل المرء أنزل قدرًا من أن يتصل بالله من تلقاء نفسه ولا بد له من آخر يحمل قربته ويقبل توبته"[١].

وكانت القبيلة في الجاهلية تصهر الفرد في جماعته انصهاراً يكاد يمحو أي توجه يخالف توجهها، فقد كان العرب أصحاب قيم رفيعة في ميادين شتى، بيد أنها كانت تنحرف بدافع العصبية أو الهوى أو العادة والعرف إلى النقيض أو ما يقاربه، فتتحول الشجاعة إلى تهور والنصرة إلى حماية للظالم.

إن السيرة النبوية تثبت أن الصحابة الأوائل خرجوا على هذا المنحى، وتسللوا خارجين عنه رافضين له إلى سياج دين جديد يشعرهم بذاتيتهم وقيمتهم الإنسانية، وتحملوا في سبيل ذلك الكثير من العناء والصعاب. وفي هذا الخروج عن أسر التبعية العمياء للقبيلة افتلات للذات من أسر المعهودية إلى رحاب الإبداع، وانطلاق لقدراتها، لتخط مسارها في سبيل بناء ذاتي ومجتمعي لا يعتمد على إلغاء الذات والانصهار في المجموع، ولكن على فتح مجالات أرحب أمام النفس لتتفنن في العطاء والبناء، وتسهم في تقديم الجديد وهدم ما ثبت عدم جدواه من عقائد وقيم ومبادئ وعادات وتقاليد، وهذا دأب كل حضارة ناشئة واعدة، وعند إنعام النظر في المسلمين الأوائل في مكة يبدو في شخصياتهم رسوخ هذه المعاني وثباتها. روى ابن سعد بسنده عن الزهري قال: لما كثر المسلمون وظهر الإيمان، وتحدث به، ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش، على من آمن من قبائلهم، فعذبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم[٢].

وقد كان حديث جعفر لملك الحبشة فيه من التمايز ما يدل على الصبغة الجديدة التي صبغ بها الدين أهله ومعتنقيه، فلم يتماهوا مع ضلال قومهم، ولكن خرجوا عليهم معلنين قيمًا جديدةً بنَّاءة تخالف ما اعتاده القوم من شرك وظلم وفجور وعدوان، ولم

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٢.

(٢) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج ١/ ٢٠٣.

يخضعوا لابتزاز قومهم وتعذيبهم. وهذه الشخصيات الفذة هي التي تبني الحضارات في بدايتها وتقود الجماهير بعد ذلك في مسيرتها الحضارية[1]، ولا عودة للمسلمين لمجدهم الحضاري إلا بنفوس وعقول تحترم إنسانية الإنسان وكرامته، وتضحي في سبيل ذلك بالروح والمال كما فعل الصحابة ﷺ في العهد المكي.

(١) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام ج١ ص.٣٣٦، ورواه أحمد في مسنده، باب حَدِيثُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ حَدِيثُ الْهِجْرَةِ،ج ٣ ص ٢٦٣.

الخـــاتمة

بعد استعراض الأبعاد الحضارية في السيرة النبوية في العهد المكي يتضح ما يأتي:

١- العهد المكي عَنِيَ ببناء الإنسان الحضاري، وخالف ما كان عليه المجتمع الجاهلي في بنيته وتوجهاته، بيد أن العناية المركزة على الفرد جعلت من هذه المرحلة نموذجًا تربويًّا وبناءً حضاريًّا يمثل مرجعية عملية ومنهجًا للتكوين الحضاري لأمة الإسلام، وبوصلة تضبط مسيرة عودة المسلمين إليها، عندما يتيهون عنها، أو تنحط حضارتهم.

٢- بُعد التوحيد حلَّ مكانة الرأس من الجسد في البناء الحضاري في العهد المكي، وعلى أساسه ومنه انطلقت كل الأبعاد الحضارية الأخرى، بل وسهَّل هذا البعد رسوخ وتنمية الأبعاد الأخرى في نفوس الرعيل الأول، فتغيرت الأفكار واستنارت بنور العلم والمعرفة.

٣- الحضارات تبني على فكرة مركزية تلتف حولها جماهير الأمة، ويكون لدها الإيمان الكامل بجدواها والاستعداد للتضحية في سبيلها، كما أن الحضارة الإسلامية قامت على العلم وحاربت الجهل منذ الوهلة الأولى لنشأتها، وأن هذا لا بد منه لبناء حضارة إنسانية راقية.

٤- القيم ضابطة للأفراد والمجتمعات؛ لذلك. عنيت السيرة النبوية بتنشئة الرعيل الأول على القيم الحضارية التي أعادت للإنسان قيمته وحريته وإنسانيته.

٥- المسيرة النبوية كانت مسيرة حضارية ذات سمة اجتماعية فأبت الانعزال وانفتحت على الآخر وتفاعلت معه بمرجعية القرآن وتطبيق الرسول ﷺ له عمليًّا، وبمغايرة لما كانت عليه الجاهلية. وبمسيرة جماعية تقصد أهدافًا حضاريةً محددةً وواضحةً.

٦- الأبعاد الاجتماعية والقيمية كان لها طابع التجديد في المعاني، والتغيير في النفوس، والتمايز بين الجاهلية والإسلام، بما أتاح للرعيل الأول أن يصبح نموذجا اجتماعيًّا وقيميًّا حضاريًّا، ضبط مسارها ونظم حياة أفرادها.

التوصيات:

يوصي البحث بما يلي:

١- إعادة القراءة للسيرة النبوية من منظور حضاري يسهم في الاستفادة من هذا

النموذج العملي في عودة النهضة الحضارية للأمة.

٢- إجراء المزيد من الدراسات حول الجانب الحضاري في السيرة النبوية. وتخصيص جوائز علمية تكون حافزا للباحثين للتعمق في هذا الجانب دون الإغراق في تفاصيل الأحدث، فقد اغنت كتب السير التاريخية في هذا المنحى.

٣- عقد مؤتمر علمي عن الأبعاد الحضارية في العهد المكي يتم إبراز الجوانب الخفية والأدوار المهمة في المسيرة النبوية مثل الدور الحضاري للمرأة في العهد المكي.

٤- السعي لإقرار مناهج دراسية تعنى بالأبعاد الحضارية في السيرة النبوية بغية الاستفادة منها في وضع دليل إرشادي عملي للنهوض الحضاري للأمة.

المصادر والمراجع

١- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠).

٢- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: دار الجبل ط٢، د. ت).

٣- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م).

٤- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، (مصر: مكتبة البابي الحلبي الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م).

٥- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر،(ط: دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ).

٦- ابن نبي، مالك، مشكلة الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر ط٤، ١٩٨٤م).

٧- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الجامع الكبير - سنن الترمذي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٨م).

٨- التيجاني عبد القادر حامد، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي(المعهد العالمي للفكر الإسلامية، ١٩٨١م)

٩- جارودي، رجاء، الإسلام والحداثة، ترجمة: د.العربي كشاط، (إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٢٠٠٠).

١٠- الجندي، أنور، الحضارة في مفهوم الإسلام على طريق الأصالة الإسلامية ٤،

(دار الأنصار، ١٤٩٩، ١٩٦٩م).
١١- حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج: ١، ١٩٧٨م.
١٢- حسين، مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، (سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨م).
١٣- الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، روح البيان، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (دمشق: دار إحياء الكتب العربية، ١١٢٧هـ، د.ط)
١٤- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، (مؤسسة الرسالة،ط٣، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).
١٥- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).
١٦- سيد حسين نصر، العلوم في الإسلام، نقله للعربية: مختار الجوهري، (تونس: ط: دار الجنوب للنشر، د.ط، د.ت)
١٧- سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم (إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
١٨- السيوطي، جلال الدين، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، (٨٤٩ - ٩١١ هـ)، تحقيق: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، (القاهرة: الأزهر الشريف، ط ٢، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م).
١٩- شبينغلر، أوسفالد، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٣٤)
٢٠- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (مؤسسة الرسالة، ط ١ ١٤٢١هـ-٢٠٠١م).

٢١- عبد الحميد، مدكور، دراسات في العقيدة الإسلامية، (دار الثقافة العربية ٢٠٠٠).
٢٢- عرجون، محمد الصادق، محمد رسول الله، (دمشق: دار القلم، د.ط، د.ت)
٢٣- الغزالي، محمد فقه السيرة، ،(القاهرة:دار الكتب لحديثة، ط ٦ ١٩٦٥م).
٢٤- الفاروقي، إسماعيل راجي التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، (ط مدارات للأبحاث والنشر ط: ثانية: ٢٠١٤م).
٢٥- القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس الفروق، تحقيق: عمر حسن القيام، (القاهرة: مؤسسة الرسالة ، ط١ - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).
٢٦- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وآخرون، (القاهرة: دار الكتب المصرية -، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م).
٢٧- محمد الخطيب، القيم الحضارية نحو إنسانية جديدة، سلسلة كتاب الأمة، (إصدار إدارة البحوث والدراسات الإسلامية قطر) العدد ١٣٩، رمضان ١٤٣١هـ).
٢٨- محمود شيت خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، (قطر: سلسلة كتاب الأمة، إصدار إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، ٣، ١٤٠٥هـ).
٢٩- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي د.ط، د.ت).
٣٠- موسى بن راشد العازمي، اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية»، (الكويت: المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، ط:١، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١.

فهرس الموضوعات

المقدمة	٤٨٤
التمهيد	٤٨٨
المبحث الأول الأبعاد الحضارية الدينية والفكرية في العهد المكي	٤٩٢
المطلب الأول: البُعد الديني	٤٩٢
المطلب الثاني: البُعد الفكري	٥٠٠
المبحث الثاني: الأبعاد الحضارية الاجتماعية والقيمية في العهد المكي	٥٠٧
المطلب الأول: البُعد الاجتماعي	٥٠٧
المطلب الثاني: البُعد القيمي	٥١٧
الخاتمة	٥٢٨
المصادر والمراجع	٥٣٠
فهرس الموضوعات	٥٣٣